بمناسبة
عيد النيروز

المسيح المتألِّم في شهدائه[1]

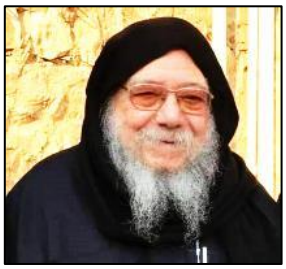

+ «عُذِّبُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّجَاةَ لِكَيْ يَنَالُوا قِيَامَةً أَفْضَلَ» (عب ١١: ٣٥).

❖✲❖

حينما اختار المسيح تلاميذه الاثني عشر ودعاهم ليكونوا رُسلًا، لم يَعِدْهم بمجدٍ وكرامات في هذا العالم، بل أخبرهم بما سيُلاقونه من ضيقاتٍ، وذلك بقوله لهم: «هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ. وَلكِنِ احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ، لأَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَفِي مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ. فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. وَسَيُسْلِمُ الأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَالأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ الأَوْلاَدُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ، وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلكِنِ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهذَا يَخْلُصُ» (مت ١٠: ١٦-٢٢).

ثم أكمل الرب قائلًا: «وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ» (مت ١٠: ٢٨). ثم أضاف قائلًا: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا» (مت ١٠: ٣٤-٣٩).

---

(١) عن كتاب: "طعام الأقوياء"، الجزء الأول، طبعة أولى ٢٠١٧ ، ص ٣٧٢؛ للمُتنيِّح الأب القس يوحنا المقاري (تذكار نياحته ٣ يوليو).

هذا هو خطاب التجليس الذي به سلَّم الرب يسوع مهام إرساليته لتلاميذه ورُسُله الاثني عشر، إذ بدأ بإنبائهم بأنهم مُرسلون كغنمٍ في وسط ذئاب. وما هو مصير الغنمة وسط الذئاب إلَّاالقتل والافتراس! ولكن ما أعجب فاعلية طعم الغنمة حينما يفترسها الذئب! إنها كفيلة بأن تُغيِّر طبيعة الذئب وتُحوِّله إلى غنمة. وهذا ما حدث مع شاول الطرسوسي حينما اشترك في قتل استفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء، فقد افتقدته نعمة الله وصار بولس رسول الأُمم.

إنَّ طبيعة إرسالية المسيح يجب أن تكون مفهومة من البدء في كونها ليست تكريمًا وتجليسًا على كرسي الرئاسة؛ بل هي إنكار للذات وحَمْل للصليب، هي استعدادٌ للتسليم إلى محاكم والجّلْد في مجامع، هي الشهادة أمام ولاة وملوك، باستعداد الموت من أجل اسم المسيح.

فالمسيح لم يأتِ ليُلقي سلامًا على الأرض، بل جاء ليغرس سلامه الكامل في القلوب حتى لا تخاف من التعذيب والموت، ولا ترهب من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها. وهو يُطالبنا أن نحبَّه أكثر من الأب والأُم والابن والابنة والأهل والأعزَّاء، ويُحذِّرنا من أن نحب أحدًا أكثر منه مهما كانت علاقته بنا. فأعداء الإنسان أهل بيته، إذا صار تعلُّقنا بهم عائقًا عن حُبِّنا للمسيح: «وَمَنْ لَا يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا». وهذا هو نفس ما قاله الرب يسوع أيضًا في موضعٍ آخر: «مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يو ١٢: ٢٥).

الشهادة والاستشهاد:

الشهادة للمسيح بالفم، هي الكرازة بالحياة الأبدية، وقد تكلَّم الرب يسوع عن هذه الشهادة مُبيِّنًا أنها هي التي يضطلع بها الروح القدس، وذلك حينما قال: «وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي». ولكنه يشهد في أفواه رُسُله وخُدَّامه وشهدائه، فهو يشهد للمسيح فيهم وبهم، لذلك أكمل المسيح قوله هذا هكذا: «وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الابْتِدَاءِ» (يو ١٥: ٢٦،٢٧).

فالشهادة للمسيح بالفم تستلزم عمل الروح القدس، لأنه «لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَسُوعُ رَبٌّ" إِلَّا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ» (١كو ١٢: ٣). كما إنَّ الشهادة بالدم، التي هي الاستشهاد، هي أيضًا ثمرة مباشرة لحلول الروح القدس. فهي ليست عملًا من أعمال الشجاعة أو البطولة أو قوة الإيمان، ولكنها عملٌ من أعمال الروح القدس في النَّفْس التي وضعت في ذاتها حُكْم الموت وخضعت للمسيح وأحبَّته حُبًّا يفوق حبَّها لنفسها: «مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يو ١٢: ٢٥).

والمسيح له المجد لم يُطالبنا أن نشهد له أو نستشهد لأجله إلَّا بعد أن قدَّم لنا نفسه مثالًا وطريقًا حيًّا نحيا به. لذلك يستحثُّنا القديس بولس الرسول قائلًا: «فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ» (في ٢: ٥-١١).

إذن، فنحن مُطالَبون أن نقتدي بالمسيح، ويكون فينا نفس الفكر الذي كان في المسيح يسوع. فلقد أخلى المسيح ذاته من مجد الأُلوهة، فمع إنه "مساوٍ للآب في الجوهر"، وهو والآب واحد، إذ قال: «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ»، و«الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ»، وأيضًا قوله: «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ»، «صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ» (يو ١٠: ٣٠،٣٨؛ يو ١٤: ٩،١١)؛ إلَّا أنه قَبِلَ أن يتجسَّد في صورة إنسانٍ آخِذًا صورة عبد صائرًا في شِبْه الناس، وبالرغم من تجسُّده لم يزل إلهًا. ومع كونه لم يُخْفِ عن تلاميذه ذلك، إلَّا أنه حتى الليلة الأخيرة قبل بذله ذاته للموت موت الصليب، سأله أحد تلاميذه قائلًا: «يا سيِّد، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا » (يو ١٤: ٨)، فتعجَّب الرب من ذلك وأجابه قائلًا: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟» (يو ١٤: ٩).

من هذا يتضح أن إخلاء الرب لذاته من مجد أُلوهيته قد وصل إلى أقصى حدٍّ، حتى إلى قبوله عار الموت على الصليب، مجتازًا كل مراحل الإهانة والجَلْد والتعذيب واللطم على الوجه والبَصْق، بينما هو القدوس البار الذي لم يوجد في فمه غشٌّ ولم يُبكِّته أحدٌ على خطية.

لذلك، فإنَّ موهبة الاستشهاد العلني بالنسبة للشهداء في المسيح، لا يمكن أن يتهيَّأوا لها إلَّا بإنكار الذات بفعل الروح القدس فينا، إخلاءً يصل إلى حدِّ التجرُّد من كلِّ مجدٍ وكرامةٍ أرضيَّة أو روحيَّة، وقبول الإنسان في أعماقه أن يعيش بإحساس العبد المرفوض والمتألِّم، أي بنفس الإحساس الذي عاشه المسيح: «ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إش ٥٣: ٧). وهكذا فإنَّ سرَّ قبول الاستشهاد والموت بفرحٍ من أجل المسيح، يكمُن في الحياة التي تسبقه، وهذا كله يكون بتعضيد الروح القدس.

المسيح المتألِّم في شهدائه:

لقد ظهر المسيح لشاول الطرسوسي وهو في طريقه إلى دمشق ومعه رسائل من قِبَل رئيس الكهنة: «أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّدًا وَقَتْلاً عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ، فَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى دِمَشْقَ، إِلَى الْجَمَاعَاتِ، حَتَّى إِذَا وَجَدَ أُنَاسًا مِنَ الطَّرِيقِ (أي من التابعين للمسيح)، رِجَالاً أَوْ نِسَاءً، يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلاً لَهُ: "شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟" فَقَالَ: "مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟" فَقَالَ الرَّبُّ: "أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ"» (أع ٩: ١-٥).

وهنا نرى كيف أنَّ الربَّ يتألَّم في شهدائه، ويَعتبِر أنَّ كلَّ مَن يضطهدهم يضطهده هو شخصيًّا، كقول إشعياء النبي: «فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ، وَمَلاَكُ حَضْرَتِهِ خَلَّصَهُمْ» (إش ٦٣: ٩)، وكما قال أيضًا زكريا النبي: «لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: بَعْدَ الْمَجْدِ أَرْسَلَنِي إِلَى الأُمَمِ الَّذِينَ سَلَبُوكُمْ، لأَنَّهُ مَنْ يَمَسُّكُمْ يَمَسُّ حَدَقَةَ عَيْنِهِ» (زك ٢: ٨). وقد عبَّر الرب يسوع عن ذلك أيضًا باحتسابه أنَّ كل ما نفعله بأحد إخوته الأصاغر فإنما بالرب نفعل (انظر: مت ٢٥: ٤٠)، «أَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أف ٥: ٣٠). كما أننا لا يمكن أن ننسى كيف جاء المسيح بنفسه مع الفتية الثلاثة في أتون النار، فصار لهم بَرَدًا وسلامًا (انظر: دا ٣).

وقد علَّق الأب متى المسكين عن هذا الاختبار العجيب الذي يجوزه الشهداء الذين يستهينون بالموت من أجل عِظَم محبتهم في الملك المسيح، قائلًا:

[لأن الشهادة للمسيح بسَفْك الدم هي تجديدٌ حيٌّ للصليب، حيث يكون المسيح

موجودًا في قلب الشهيد، وفكره وروحه، يسنده إلى آخر نَفَسٍ، مُمدِّدًا جسده على جسده وواضعًا جروحه على جروحه! وهذه الحقيقة يكشفها لنا الشهيد إغناطيوس، كخبير في هذا الأمر، هكذا: "إني مستعدٌّ أن أجوز هذه الآلام كلها لكي أكون شريك المسيح فيها، الذي تأنَّس وصار إنسانًا كاملًا، الذي هو في داخلي يُقوِّيني ويُشدِّدني" (رسالته إلى سميرنا ٤)؛ حيث يكون الروح القدس هو المُتكلِّم والمُعطي قوَّةً لتَجاوُز حِدَّة الألم، إلى أن تُشرق على النفس حلاوة الخروج، فتتطلَّع العين على رؤيا العالم الآخر البهيج.

وهنا سرُّ جرأة الشهيد التي يستمدُّها من المسيح القائم فيه كغالبٍ العالم والموت. وهنا أيضًا سرُّ فرحة الشهيد وابتسامته بسبب تجاوزه الألم والتعذيب بفعل الروح القدس المُهدِّئ للنفس والمُعطي السلام للروح. وهكذا يجوز الشهيد كل أصناف العذابات بلا أيِّ شكوى أو اعتراض؛ لأنه في ذلك الوقت يجوز، في الحقيقة، اختبار غلبة الموت وإشراقة الخلود. ومع كلِّ ألمٍ وتعذيب، يذوق جنبًا إلى جنب مجد المسيح عيانًا برؤيا منظورة ومحسوسة (كما نقرأ في سِيَر الشهداء في السنكسار). وفي وسط صخب الاضطهاد والعنف والأعمال الوحشية، تنفتح الأُذُن على سماع أصوات تشجيع سماويَّة من ملائكة وقدِّيسين وأرواح شهداء سابقين، بل والمسيح نفسه][٢].

(٢) الأب متى المسكين، "الشهادة والشهداء"، ص ١٠.

****

دير القديس أنبا مقار

صَدَرَ حديثًا — من إعداد: رهبان دير القديس أنبا مقار

الاستشهاد
عَبْر العصور

(وهو تجميع وتبويب لمقالات نُشِرَت في مجلة مرقس من عام ١٩٦٧م إلى عام ٢٠٢٣م،

ولا سيَّما شهر سبتمبر من كلِّ عام)

٤٩٢ صفحة (من القَطْع الكبير – تجليد فاخر)

****